الفصل الخامس والعشرون

أيام عصيبة

ومرت أيام عصيبة على مها مزقت فيها قلبها شر ممزق، ثم أفاقـت لترى الشمس مشرقة والعصافير تزقزق والعالم يسير كأنما ليس هنـاك أناس شرفاء حرموا الشمس والهواء النقي وزقزقة العصافير والحرية. لم تظلم الدنيا لحزنها ولا أصابها السقم لألمها. انها لاتدري كيـف لاتهتـز الأرض، وكيف لا يئخن ضمير الناس بالجراح، حين تنقلـب المـوازين فيصبح الوغد وصي الشريف، ويغدو القابض على شرفه كالقابض علـى النار؟ لماذا لو نما احتجاج في قلب نظيف مات مخنوقا بفرديته، دون أن يترك أثرا في سواه؟ لماذا الخوف وحب السلامة طبع الناس؟

ونما قرار في نفسها أدهشها. ان الدنيا لاتسمع الاّ من يريد أن يسمع الدنيا صوته. وأحست أنها تملك في أعماقهـا قـوى لاتـستفيد منهـا، لاتشحذها، لاتسخّرها لإنقاذ أحمد.

كانت الشائعات تدور في البلد عن تعذيب المساجين، عما يلاقونه من هوان أقله ضرب السوط، وما كانت بحاجة لخيال لترسم صورة صحيحة عما يجري خلف القضبان. ان صراخ المعتقلين لايزال يدوي في أذنيهـا ورائحة الشواء تزكم أنفها وتصيبها بالدوار.

لن تكون أبدا أسيرة العجز، ان ما تخشاه قد حدث. لم يعد من شـيء يكبل قواها أن تنطلق. وكثيرا ما كانت تترك الصغير عند العمة راضية في فترة غياب عزيز في المدرسة بعد أن تطبخ لـه مهلبيـة الحليـب، وتذهب وحياة لزيارة نساء المعتقلين والتشاور معهن فيما عليهن فعله.

كانت الأوامر قد جاءت بمنع الزيارة بحجـة أن الـسلطة اكتـشفت مؤامرة لقلب الحكم اشترك فيها بعض المساجين. ولم يكن أحد من الناس

يدري الحقيقة بين كل ما ينسج من أكاذيب وأقوال زور. لقد كان الرجـل يعتقل لمجرد تقرير من إنسان موتور، وما أكثـر الحاقـدين والمنـافقين والمنتفعين من زج بريء في غياهب السجن. كان الغضب المكتوم يتأجج في قلب مها وهي تسمع ما تروجه الصحف المأجورة وعملاء المباحـث عن اشتراك أحمد في معركة الموصل في العراق، وهو قريبها في البيت لم يبرحه. وعندما تتوقف حياة لتقرأ العناوين الكبيرة أمام أحد الأكـشاك، تجذبها مها من يدها وتقول:

-أهناك شيء يقرأ؟ من الأفضل أن لا نـسمع أخبـارهم ولا نقـرأ صحفهم. انها حرب، ونحن خصومهم لأننا نعرف حقيقتهم. دخلت أميركا سوريا في الصناديق المحملة على جمال المصريين، انتهت معركتهم مع الاستعمار! أليس هذا ما يقولون؟ العدو اليوم هو نحن لأننا لانـصدق أن معركتنا انتهت مع الإستعمار بل بدأت.

يسألها كل من يعرفها، أحقا أحمد في العراق؟ أحقا شوهد في دبابـة في مذبحة الموصل؟

حتى وهو سجين في قبضتهم لايكفّون عن التزوير. من حق الأكاذيب أن تجد من يطبعها وينشرها ويذيعها، ومن حقهـا أن تـدخل الأبـواب والنوافذ وتقتحم وجود المواطن ناشرة جناحيها السوداوين فوقه، مهيمنـة على تفكيره. هذه مهمة الصحف والتلفزيون والإذاعة. أما الحقيقة فعليها أن تقبع في الظلام وراء قضبان السجن تسام سوء العذاب!.

وحين تنفي الخبر وتدلي بواقع الحال ينظر اليهـا الـسائل بحيـرة ويغوص في لجة من الريبة. لقد أغرقوا التقدميين في مـستنقع الكـذب والإفتراء، وعلى الشريف أن يجاهد طويلا ليغسل ما علق بسمعته مـن أوحال.

أصبحت المحكمة هي الأمل الوحيد. ولكن الأيام تتلو بعضها بعـضا دون محاكمة. سجناء لا يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، تـزور حـولهم وتحبك مختلف الاتهامات، أو يحتجزون دون أن يعلم أحدهم فيم قـبض عليه وألقي به في غياهب السجن، كذلك التـاجر الـذي نزعـت منـه المناقصة وهو لايدري أنه بسببها يحشر بين هؤلاء النـاس التقـدميين، والذي كان يصيح محاورا طبيب السجن حين دخل أحمد القاووش.

-ياعالم ياناس، أنا لست شيوعيا ولا إشتراكيا. رجل تاجر أتكـسب كما يتكسب كل الناس بالحلال ولي عيال. فاتح بيتـين ولـي زوجتـان وثماني أولاد.

قال له الطبيب بلهجة جافة:

-مش شغلي، أنا مش ريس التحقيق!.

-نحن شايفين رئيس التحقيق؟ جمعة أنا هون آكـل ضـرب بـدون ماشوف رئيس التحقيق.

-بقول لك مش شغلي، مش شغلي.

ولكن الرجل أبى أن يتركه وتمسك بسترته:

-ليخبروني فقط ماذا فعلت، ومن هو إبن الحرام الذي وشى بي كذبا وافتراء. لم يكن المسكين يدري أن قضيته كانت مع أعلى رتبـة فـي المباحث.

إندفع رجل مكتهل يطوي جسده على ألم في معدته وقال:

-معدتي فيها قرحة يا حضرة الطبيب. أنا أعيش على الحميـة منـذ عام، ويطعموني عدسا كل يوم، عدسا بحصاه.

-فاكر جنابك في عزومة بفندق هلتون؟

-لا، أنا عارف. بس القرحة حركت علي وطـول الليـل مابنـام. حيلوني على مستشفى، إعملوا لي عملية، إبعثوا ورا أهلـي يزورونـي، إسمحوا لهم يجيبوا لي أكل خفيف عالمعدة.

-انت تعرف دا ممنوع. خذ حبات دولفيران.

ووضع في يده أربع حبات وأردف:

-حبتان اليوم وحبتان غدا ويسكن الألم.

وتهاوى الرجل على فراش القش وقد شحب وجهه وبدا أن نوبة الألم قد عاودته.

-لم أعد أحتمل. تقصرون عمري وتقتلوني دون أن أفعل شيئا. كنت من أشد المتحمسين للوحدة. والله ليلة التوقيع سهرت مع رفاقي وشـربنا نخبها حتى الصباح بالرغم من الأذى الذي يصيبني من الـشرب، وفـي اليوم التالي ذهبت الى المستشفى. ماذا جرى؟ انني لـست منتميـا لأي حزب، فقط كنت أثرثر بالإشتراكية مثل كل مثقفي البلد، موضة الـزمن كانت. قلنا اذا كان خالد العظم البرجوازي الكبير صار أحمـر، ووقّـع اتفاقيات مع المعسكر الإشتراكي، شراء سلاح وغيره، فلا بد أن تكـون هذه البلاد صديقة لنا.. غلطنا؟

وتأوه فجأة كأنما شكّه ألم واخز:

-أخرجوني من هنا! انني مستعد أن أوقّع على أي تعهـد تطلبونـه. حرمت الحديث في السياسة ياناس. ان استمر الحال علي ولم تعـالجوني سأقطع شريان يدي بأسناني. انني رجل لا أحتمل الألم.

وتجاوزه الطبيب الى رجل ذي هندام حسن ووجه ذكي ساخر يتأمل مايجري بقلب حزين.

-هل تشكو أنت الآخر من شيء؟ فأجابه الرجل وقد حبكـت معـه النكتة وأخذ يقلد اللهجة المصرية: أمال.. أنا فزعان من مراتي..

-أنا ما حبش الهزار.

-وانا كمان ماحبش الهزار. يعني لو كنت عيان كنت أقول لك؟ وايه الفايدة؟ حتى تعالج قرحتي أنا الآخر بالدولفيران، وجلد ظهري المـسلوخ بحبة أسبرين؟ أرسلوك طبيبا أم موظف مسلخ، تعلقنـا مـن كراعيبنـا وتدمغنا؟

فوجئ الطبيب بهذا الموقف الذي لم يعتده، كـان ذا حجـم صـغير بالنسبة لمخاطبه، وأخذ يهدد مرددا:

-سأشكوك، انتظر حتى أشكوك!.

-أنا الذي سيشكوكم، ولعبد الناصر نفسه، لاأظنه يرضى عما يجري في سوريا، ولا أظنكم تخبرونه عما تفعلون. كل واحـد فـيكم يمـارس ساديته بطريقته الخاصة بدءا من السراج الى طبيب السجن!.

وخرج الطبيب لا يلوي على شيء دون أن يتم دورته، وسمع الرجل من يناديه ليلعب الورق مع زمرة كانوا منخرطين باللعب فانضم اليهم.

توقف اللاعبون عند دخول أحمد. لم يكن بين المعتقلين من يعرفـه، ولكنهم ما كادوا يسألونه عن اسمه حتى فارق أساريرهم جمود الغربـة، وحل محلها تآلف المعرفة، وهشّوا له وأفسحوا مكانا على فراش القـش الحائل الممزق.

ان الناس في دمشق وثيقو المعرفة أحدهم بالآخر حتى دون أن يروه طوال حياتهم. فالبلد ليس من الكبر بحيث يفقد أهلـه روابطهـم، فهـم متشابكو العلاقات والقربى، وليس هناك انفصام بارز بين الطبقات بسبب

التخلف النسبي العام، وتقارب الأحوال المادية والاجتماعية، أما حين ينتمي الفرد الى جماعة أو حركة معينة فانه يصبح كالطير الأبلق يتناقل رفاقه وخصومه أخباره، ويحللون اتجاهاته وميوله ويدرسون شخصيته وأحواله، ويسلسلونه حتى الجد العاشر. وحتى علاقاته الشخصية تبدو وكأن لها أهمية خاصة بالنسبة اليهم؛ فالإنسان كل لا يتجزأ وهو نتيجة مباشرة لمجموع التأثيرات المحيطة به أكانت مباشرة أو غير مباشرة. وقد يرتفع في عيونهم وقد يهبط تبعا لما يرسم كل واحد عنه من صورة حقيقية أو مشوهة.

هذه هي السمعة! بطاقة غير منظورة يحملها كل فرد في دمشق فوق جبهته. وكانت سمعة أحمد بين هؤلاء السجناء، وجلهم من الشباب التقدمي سمعة حسنة، فهو جريء لايهاب كلمة الحق، وهو موثوق نزيه لايعرف أحد عنه أنه فعل يوما ما يشين، ولكنهم لم يكونوا يعرفون عنه تلك الصلابة النادرة التي تتجاوز قدرة الإنسان العادي وطاقة احتماله.

سأله أحد المعتقلين وهو يحشو ظهر آخر بمنشفة.

-هل سمكت مناشفك؟ وأحضرت منها كفاية؟

فاجاب أحمد بدهشة: - كلا ولم؟

-يجب أن تعيروه ياإخوان بعض مناشفكم.

وضحك السجناء وتغامزوا فيما بينهم وقال أحدهم مفسرا:

-اننا نحشو ظهورنا بالمناشف، لأننا مهددون بالنزهة في أية ساعة من الليل.

-أية نزهة!

-سيدي يخرجوننا للنزهة الواحد تلو الآخر بين صف من المباحـ ث يحيينا كل واحد منهم بسلام على الظهر، فاذا كانت المناشف كافية مرت النزهة بسلام.

وضحك السجناء وأخذ أحدهم يغني بلهجة ساخرة فيتبعه آخرون:

-أوها تمت الوحدة! أوها والله وفرحنا! أوها وحملنا جمال، بسيارته على كتافنا! حملنا جمال!

فصاح أحدهم:

-خرب الله بيتكم. . تريدون فضحنا؟ لقد أدخلوني السجن من أجـ ل نكتة صغيرة سمعتها ونقلتها بدوري.

-انت ناوي تعيد النكتة على مسامعنا مرة أخرى؟

-الأستاذ أحمد لم يسمعها.. "دخل الباص رجل مصري وجلس قرب امرأة وأخذ يغازلها..

-يعني السوري لايعملها؟

-اسمع ياأخي لاتقاطعني.. لم يغازلها فقط بل قرصـ ها فـ صاحت، وثارت حمية رجل سوري وقال له "بس ياقليل الشرف، وين رايح؟ انت في سوريا مو في مصر" فقال له المصري "رجعي، حمش" فانهال عليـ ه السوري ضربا وعاضده آخران فوقف الباص وجاءت الشرطة وأخـ ذت الجميع الى المخفر..

قال الشرطي للرجل الأول "ليش ضربت المصري؟"

-لأنه تحركش بقريبتي.

وسأل الثاني: - وأنت شو دخلك ليش ضربته؟

-تكاتفت مع المرا وقريبها لأنهما من حيي.

وسأل الثالث: - وانت ياحلبي، المرا لاهي قريبتك ولا هي من حيك، وانتو من زمان بتكرهوا أهل الشام ، شوعدا مابدا؟

-سيدي رأيتهما يضربانه فقلت في نفسي فرطت الوحدة ياولد فـآجر به أنت الآخر.. وابتسم أحمد بينما كان الآخرون يقهقهون.

-الشعب المصري إخواننا، والوحدة قوة لنا ضد أعدائنا. نحن لـسنا ضد الوحدة ولا الشعب المصري، بل ضد حكامه. نحن ضد الدكتاتورية التي تريد إلغاء الأحزاب ودور الشعب.

قال أبو عمر الذي كان يعنف الطبيب:

-يسلم فمك، طول الوقت يقولون لي ليش أخوك ركض عمل وحـدة هو والضباط، وحدة غير مدروسة. ويشمتون لأن عبد الناصر غدر بـه. أما كانت هذه رغبة كل الشعب السوري؟

-أنت اذن شقيق الفريق عفيف البزري؟ يسعدني التعرف اليك..

-انك لاتعرفني يا أستاذ أحمد ولكنني أعرفك من حديث أخي عنك.

-ما أخبار الفريق؟ هل ترك البلاد؟

-نعم، نجح في تركها في اللحظة التي صدرت فيها الأوامر باعتقاله.

-كنا في خوف شديد عليه، جاءتنا الأخبار بـأنهم حـاولوا مـرتين اغتياله ففشلوا.

-جاؤوا لاعتقاله وقلبوا الدنيا في بيت والدي حيث كان ينزل، وأخذوا صوره وصور عائلته وكل أوراقه، ولما باؤوا بالفشل بحثا عنه قبـضوا علي بدلا من أخي، أنا الذي هجرت السياسة منذ عشرة أعوام وانصرفت للتجارة.

-لاحول ولا قوة الا بالله! غمة وتزول!

قال التاجر البرجوازي:

-هذه وحدة لن تدوم.. لايستفيد منها لا الشعب السوري ولا الـشعب المصري. ان برجوازية مصر تعمـل المـستحيل لإفقـار برجوازيتنـا وسحقها. لايستفيد من الوحدة الاّ المقربون من الحكم. في السوق لم تعـد ترى الاّ نساء المسؤولين المصريين يتبضعون بألوف الليرات.

قال رجل يلبس سترة ضابط في الجيش نزعت عنها الرتب، ويتحدث بلهجة فلسطينية موجها الحديث الى أبي عمر:

-كنا أول الضحايا في الجيش وأول مـن سـرح.. مائتـا ضـابط فلسطيني سرحهم عبد الحكيم عامر بعد شهر من الوحدة.. أنا لما سمعت باستقالة الفريق مزقت في لحظة غضبي صورة عبد الناصـر فأودعـت السجن.. والله أنا الذي كنت أعبد صوت أم كلثوم، أصـبح اليـوم يثيـر أعصابي..

قال أحمد:

-لايجب أن يتملكنا الغضب وتختلط الأمور لدينا. نحن عانينـا مـن الديكتاتوريات قبل مجيء عبد الناصر.. لانريـد أن تـنكمش عواطفنـا فنصبح إقليميين.. القضية بيننا ليست قضية مصر وسوريا والوحدة التي كانت حلمنا العزيز وتحقق.. ولكن ذلك النشاز الذي بدأ منذ قيام الوحدة, هو عدم التطابق بين سياسة سوريا التقليدية وسياسة مصر. نحن تخلصنا من الإستعمار القديم منذ اثني عشر عاما. بينما مصر لم تتخلص منه الاّ حديثا.. كان أول خطاب لعبد الناصـر أن المعركـة قـد انتهـت مـع الإستعمار. لم يكن يرى الإستعمار الحديث الذي يهاجم المنطقـة بكـل قوته، لم يعرف بالمؤامرات التي قادها هذا الاستعمار لجر سـوريا الـى شبكته والتي كان الفريق البزري هو من يقود المحاكمات فيها. باعتقادي أن هذا هو السبب الأساسي للصراع الذي وقع بين عبد الناصر والفريق

البزري.. أراد الفريق وحدة تحرر فيها فلسطين وأراد عبد الناصر وحدة تحت المظلة الأميركية. ربما كانت الوحدة فخا لنا.. وأذكر أن الأمـور بدأت بتمزيق الجبهة الوطنية قبل الوحدة.

قال أبو عمر:

-من كان يقود هذا التخريب؟ محمود رياض السفير المصري. ثـم ماذا جرى؟ بدأت الضغوط من كل جانب على سوريا.. في البحر تحشد أميركا أسطولها وفي الشمال تحشد تركيا جيشها، وفي الجنوب تتـربص بنا إسرائيل، وفي الجيش يقوم النزاع بين كتلة البعث وكتلة التحريـر.. والمصريون يفتتون الجبهة الوطنية بإزجاء الوعود وإغـداق الرشـاوى على خيرة الضباط والمدنيين.

قال أحمد:

-لقد قاد الوحدة رجل أراد إنقاذ سوريا، ولا يشك أحد في اخلاصـه حتى خصومه، انه قائد الجيش السوري الذي حاكم قتلة المالكي وفـضح مؤامرات العجلاني والشيشكلي وستون وما لا أدري به من مؤامرات.

قال الضابط الفلسطيني:

-لقد أفرغ الجيش اليوم من الضباط المخلصين.. وهم اما معتقـل أو هارب أو مسرح أو منفي الى مصر. فنحن لانأمل أن تتحـول الأمـور بسرعة الى صالح الخط التقدمي الذي كان يمثله الفريق بيننا.

قال أحمد: لايستطيع أحد أن يعتقل ارادة سوريا ويحرمها من تقرير مصيرها.. ولنا أن نعتبر من الدكتاتوريات السابقة.. علـى فكـرة، فـي مؤامرة الشيشكلي شاهدت بنفسي الديكتاتور المخلوع في مطعم شـتورة يرتدي عباءة وكوفية، اقتربت منه وقلت "بعلمي أنت في إسـبانيا، مـاذا جئت تفعل هنا؟ هل نفضوا عنك الغبار لتفبرك مـؤامرة جديـدة علـى

سوريا؟ قال "لا والله، جئت أزور أهلي وأصدقائي القدامى"قلت له" كذاب، مثلك لايرعى صديقا ولا يصل رحما.. ماهـذه غايتـك.. كنـت أعـز أصدقائك، رميتني بالسجن ثم الإقامة الجبرية أربع سنوات.. قال "لسانك طويل ياأحمد، تستاهل" قلت له "مضى الزمن الذي كنـت تحـسب فيـه الجيش في جيبك، لو عدت الى سوريا لمزقك الشعب إربا".

قال الضابط الفلسطيني:

-كان الخونة يعطَون فرصة الدفاع عن أنفسهم، أما نحن فنتعفن هنا دون محاكمة.. نجوم السماء أقرب الينا منها!.

-اللعبة اليوم تنقلب علينا.. يبرز خط جديد.. هل تعلم أنني شـاهدت اليوم المتهمين في محاكمة المؤامرة الأميركية قبل الوحدة يخرجون اليوم من السجن!

دخل أحد الحراس وقال:

-سمعان الناطور يكلم المقدم.

وهب الرجل الذي قص على أحمد النكتة وقد شحب لونه ودق صدره متوجعا نادبا حظه:

-اليوم يومك ياسمعان، شو بدو مني المقدم؟

-إمش بلا سؤال!

ودفعه أمامه الى الخارج.

سأل أحمد عنه فقيل له أنه نقابي في الشركة الخماسية للنسيج. كان المتحدث الرجل المصاب بالقرحة، قال:

-أنا مساهم في الشركة.. سيدي الشركة راح تفلس وتسرح العمـال. المنسوجات المصرية ملأت البلاد.. احتجينا.. شوفوا طريقـة لتـصريف النسيج السوري.. ما حدا رد.. قبضوا على التجارة الخارجية. ماعاد لنا

سوق لابرة ولا جوة، ضيقنا على العمال، تمردوا.. قبضوا على العمال.. ما كانت الأمور في الماضي تجري بيننا وبين عمالنا بهذه الطريقة..

وعاد الرجل بعد نصف ساعة مولولا يترنح من الألم وكـشف عـن ظهره الذي تورم من لفح السياط فأعطاه صاحب القرحة حبتي الدولفران اللتين بقيتا معه ولكنه رفضها. كان الجميع يحيطون به ويـسألونه فـيم فعلوا به ما فعلوا.

-سألوني مين حرضك؟ مين رفاقك؟ مين بتعرف حزبيين؟ باطل، أنا سمعان أخبر عن رفاقي! ضربوني، آخ، حاسس سياخ نار على ظهري.. لهم وسائل والعياذ بالله! الواحد يقر عن أبيه وأمه وزوجته وإخوته..

-يعني قريت.

-لاأعرف.. أعطيت أسماء ناس هربانين.

قال المقدم الفلسطيني المسرح:

-انهم يروضوننا مثل الحيوانات المفترسة في السرك بلسع أنوفهـا بالكهرباء..

فقال الرجل الذي يحشو ظهور رفاقه بالمناشف:

-لن يروضونا ما دمنا مسمكين.

-واذا اكتشفوا خدعتنا؟

-ساعتها نرقص كما يرقص الدب على صاج سـاخن علـى نغـم الطنبور.

ولكن الصاج لم يكن ساخنا فقط بل محرقا ينتزع الحياة مـن بـين الضلوع.

دخل العريف شوحة، إختصاصي التعذيب على المقـدم مـضطربا مذعورا.

-سيدي مات الرجل.

وهلع المقدم:

-مات!

-نعم.

-كيف مات؟

-نفخوه وجلس فوقه فهد وأنت تعلم أنه فيل فتمزقت مصارينه.

-الله لايعطيكم العافية!

-سيدي لم أكن موجودا. ذهبت للغذاء بعد أن قمت بمهمتـي فـي تجربة التيار الكهربائي عليه دون فائدة.

-بغال، بغال!

-سيدي ، أنت الذي قلت لنا اسحقوهم، لاتشفقوا عليهم.

-هذه أوامر المخابرات المصرية. أنا قلت لكم عذبوهم حتى يعترفوا.

-سيدي، لم يعترف، ووسائلنا معروفة، انها ليست فنية كما يجب.

-علقوا الجرائم في رقبتي. ماذا يهم المخـابرات المـصرية؟ انهـم يوكلوننا بالمهمات القذرة. أين أذهب؟ كيف نخفي هذا الرجـل؟ أقاربـه لايعدون ولا يحصون.

-ليس له أقارب هنا حسب علمي.

-من تعني؟ ألست تتكلم عن أحمد عزيز القاضي؟

-كلا، عن اللبناني المسيحي الذي دخل سوريا بإسم مستعار.

-نصف مصيبة. ولكن هذا الرجل عضو في اللجنة المركزية. كيف نخفي أثره؟ ستقوم الدنيا وتقعد من أجله. أحزاب ودول.

-سيدي، نخفيه كما أخفينا الضابط الفلسطيني أمين الطاهرالذي بصق في وجهك..

-بل له أهل. ليس من رجل مقطوع من شجرة، جاءت أمه وأختـه تسألان عنه في السجن فقلت لهما بأننا لم نعتقل رجلا بهذا الإسم.

-لايخفى أثر هذا الرجل بمثل هذه البساطة.

-لقد دخل بإسم مستعار. اننا ننكر وجوده في سوريا. وحتـى لـو جاءت لجنة حقوق الانسان فما الذي يثبت دخوله الـى سـوريا والقـاء القبض عليه؟

-لايمكن، لابد من وجود من يعلم بدخوله سوريا.

-نصر على الانكار، أكلما اختفى رجل تتهم المباحث بتصريفه؟ نحن لانعلم عنه شيئا.

-أنا لاأستطيع أن أقول بأنني أقبض على كل الأمور. حتى في هـذا الجهاز لاأعرف من معنا، ومن يتجسس علينا ويخبر خـصومنا. كلمـا حاولنا اعتقال فرد منهم اختفى كأنه شبح. ماذا يعني هذا الاّ أن بيننا مـن يفضح أسرارنا؟

-آه انهم أشباح حقا. لايخيفني شيء أكثر مما يخيفني الأشباح!.

-ماذا نفعل بالجثة؟ أين نخفيها؟ لو أن الأجهزة الفنية التي أوصـينا عليها من ألمانيا قد وصلت في أوانها!

-ندفنها في بئر العريف شعبان، كما فعلنا بأمين الطاهر.

-انه يقول بأن الحي يتناقل الشائعات عن أمور مريبة تجـري فـي منزله. فالجيران يلاحظون أن من يدخل البيت لايخرج منه أبدا. وأن في المنزل قبوا فيه بئر ممتلئ بالجثث. لقد حاول صـبية جريئـون اقتحـام المنزل لمعرفة مايجري فيه فلما فاجأهم اعترفوا تحت الـضرب بهـذه الشائعات. الناس يعملون من الحبة قبة. كل ما فعلناه تخلصنا من بـضعة جثث لاتتجاوز أصابع اليد من بينها جثة مباحثي اكتشفنا لعبته المزدوجة.

في بلاد أخرى يسملون عيون خصومهم بالمخـارز ويـسحلونهم علـى الطرقات، ويمصعون رقابهم وهم مربوطون في كراسي التعذيب المثبتة في الأرض. ونحن نصبح ساديين فاشست لو مات رجل بين أيـدينا دون قصدنا، وما كنا نبغي غير إرهابه وإذعان مقاومته ليعطينا بضعة أسماء ممن يتعاونون مع الشيوعيين.

ودخل الحاجب قائلا:

-سيدي، جارو مارتينيان يطلب الدخول عليك، يقول أن لديه موعدا معك.

-لينتظر قليلا.

والتفت الى العريف وقال هامسا:

-أرى أن تخفيها خارج البلد. فعيون الناس مجاهر علينا.

-أين؟

-في مزرعتك. انها بعيدة ومناسبة.

-هناك الناطور.

-جد طريقة لابعاده.

-قد يلاحظ حفرا طريا فيدفعه الفضول.

-أين اذن؟

-لنفكر في طريقة أخرى، لاأريد أن ألوث مزرعتي بجريمة. اننـي أخاف الأشباح.

-حي الضمير! لسواد عينيك تملك مزرعة بنصف مليون ليرة. كنت شحاذا فأغنيناك، ألمؤهلاتك الرائعة أم لشهاداتك العالية؟

-سيدي أمرك.. تأمرني ياسيدي.. ولكن أخشى أن يكتشف أمرهـا. لست مسؤولا لو اكتشف أمرها.

-مؤقت ضعها في ثلاجة. ستصلنا الأجهزة الفنية من ألمانيا خـلال بضعة أيام. كم تنقصنا الأجهزة الفنية! أما الآن فتـدبر أمـرك، كيـف؟ لايهمني. تتدبر أمرك وأنت مسؤول لو اكتشف أمرها.

ونظر في ساعته ايذانا بانتهاء المقابلة والنقاش فقـام العريـف شـوحة مستأذنا سابحا في عرقه واضطرابه، مخليا مكانه لجـارو وهـو شـاب أرمني من حزب الطاشناق اليميني المتطرف الذي وجد في المخـابرات السورية أفضل العون للتنكيل بالهاشناق الأرمن اليـساريين فـي لبنـان بالإخبار عنهم بأنهم يخفون الشيوعيين في بيوتهم.

* * *